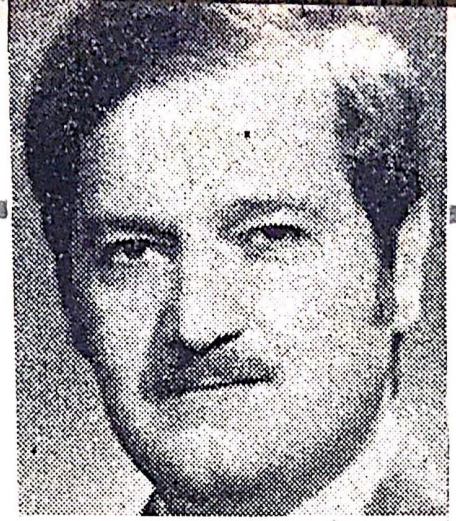

رجل ... ولا كل الرجال

الاحباء احمد وياسر وبعرب*

لكم في جعبتي اليوم قصة جديدة ليست كباقي الحكايات التي طالما قصصتها عليكم . حكايتي اليوم قد تولد – ولا بأس في ذلك – شلالا من الدموع منبعه عيونكم بدلا من شلال الضحكات الآسرة الذي اثارته حكاياتي السابقة لكم . ذلك لان حكاية اليوم حقيقية .. وعن الشهيد والدكم بالذات . فاعذروني – انا الذي طالما احببت ضحكاتكم وابتساماتكم – ان كنت قررت ان احكي لكم بعضا مما اعرفه عن والدكم .. فانه لضروري ان تعرفوا، كما هو ضروري للجميع، اطفالا وغير اطفال.

* * *

اعلم تماما ان والدكم ما كره يوما امرا اكثر من كرهه في ان يتسبب ببيتيمكم .. فليس ادرى من اليتيم بآلام اليتيم .. وقد كان والدكم يتيما مرتين . مرة حين توفي والده وهو طفل مثلكم ومرة عندما تجاوز ، بشكل يفوق كل وصف ، المقاييس الانسانية فامسى يتيما كما النبي يتيما في نبله وشجاعته وتضحيته . « عيب » والدكم – اعزائي . انه احب فضيته اكثر من اي اعتبار آخر .. ولهذا اليوم انتم ايتام .. كما نحن

عندما رايتكم اول مرة .. كنت مع والدكم في كالجري – كندا اثناء اعداده اطروحة الدكتوراه . وسعى والدكم – ارجو ان تعلموا – للحصول على شهادة الدكتوراه كان آخر ما يريد – من وجهة نظره – وآخر ما يحتاجه امرؤ في كفاءته وقدرته – من وجهة نظر الاصدقاء ونظري . كانت تلك الفترة ، بالنسبة له فترة مراجعة لتجارب نضاله السابق واعداد لنضاله اللاحق .

كان في كندا معنا ولم يكن في آن واحد . « جغرافيا » كان في كالجري وموضوعيا كان في الوطن . كان وجهه الحبيب « باروميترا » لاوضاع الوطن . ما كنا بحاجة لنقرأ صحيفة او نستمع الى مذياع . نظرة واحدة الى وجه والدكم كانت تنبئنا عن مسار الامور في الوطن . جذوره في تراب الوطن لم تهتز او تقلع . امتدت عبر المحيط الاطلسي .. وبقيت قوية . قوية جدا كانت لدرجة انها عادت ممتدة الى اعماق تراب الوطن حيث هي .

حنانيك يا تراب بلادي .. فبين طياتك يرقد اشرف المناضلين .

* * *

.. وغدا ستنبت حيث يرقد الباسل شجرة التحرر . وستستمتعون بفيء الشجرة وبثمارها : « الوحدة ، الاشتراكية ، الديمقراطية ، واسترداد فلسطين » . اهداف عاش والدكم لتحقيقها واستشهد من اجلها . اترون – ايها الاعزاء – كيف انه « زرع لتاكلوا » ولم يستشهد .. لتتيتموا ؟.

* * *

وكان والدكم ...

كان ؟!!

آه كم هي مرة صيغة الماضي احيانا .

ولكن ما هو الحاضر بدون الماضي بل وما هو المستقبل ؟

كان والدكم مشحونا بطاقات نضالية اوسع من حدود العراق . فدجلة والفرات لا زالا يذكرانه عندما تخلى عن كل شيء وحاول تخليص بلاد الرافدين ممن خانوا وعبثوا قبل ١٩٥٨ . ثم لا زالت بيروت تذكره جريحا وهو يتظاهر من اجل نصرة الجزائر .. ثم .. ثم .. ثم .. ارى ان الحكاية لن تنتهي الا اذا انا انتهيت من التعداد . اتراه يكفي ان قلت لكم : حيثما وجد بؤس وعذاب واستغلال .. كان قلب والدكم ينزف الما ويهطل نضالا .

* * *

لا زلت اذكر وبوضوح شديد ذلك المزيج من تعابير السخط والقرف والاستنكار الى جانب مشاعر الاعجاب والاكبار والاحترام التي ارتسمت على وجه والدكم بعدما انتهى عرض فيلم « أغتيال المهدي بن بركة » في احدى دور السينما في بيروت في الصيف الفائت . سخط وقرف واستنكار لحفاره المؤامرة وجبنها . واعجاب واكبار واحترام لمناضل المغرب وبطولته .

واليوم – ايها الاعزاء – الى جانب بن بركة المغرب وبن بركة فلسطين يحتل والدكم مقعد بن بركة العراق .. فالقضية واحدة .. والعدو واحد .. ومكان الاستشهاد واحد .. فافخروا به مثلما نحن نفخر .

* * *

اثناء مجازر ايلول ١٩٧٠ – ونحن في الغربة – ادركت انني فلسطيني حتى العظم .. واثناءها ايضا ادركت ، دون اي ظل من الشك ، ان والدكم كان فلسطينيا اكثر مني .

* * *

... ودونما اية تفاصيل .. اعلموا ايها الاعزاء :

ان لدغ الافاعي .. زاد من تمسك والدكم بالوفاء .

وان همجية العدو .. شدت والدكم الى عربة الحضارة .

وان ازلاق تجار السياسة .. حبب والدكم اكثر فاكثر بالعفة .

وان اللف والدوران والمخاتلة .. ثبتوا اقدام والدكم الى الخط المستقيم .

وان وطنية والدكم كوفئت بما تستحقه من نياشين : تسع رصاصات .. في الظلام . ومن الخلف .

* * *

انا لا اطلب منكم ان تكونوا كما كان والدكم . كما لا اطلب من الاخرين ، اطفالا وغير اطفال ، ان يكونوا مثل باسل . فانا اعرف الصعوبة – ان لم تكن الاستحالة – في ان يتمكن المرء منا لان يرتفع الى المستوى الذي تربع فوقه بن بركة العراق . حسبكم وحسبنا ان نحاول الاقتراب من قمته . فانتم تعاهدون – كما نحن جميعا نعلم – الفرق بين الطبع والتطبع .. وشتان ما بين ناسك عابد ومتنسك متعبد .

* * *

بعض البشر يتوسلون الانعزال واوي ذراع الرغبات ليصبحوا نساكا . والدكم – ايها الاعزاء – لم يكن واحدا من هؤلاء . والنادرون من البشر استطاعوا وهم وسط الحياة واغراءاتها – بما يملكونه من استعداد فطري – لان يكونوا نساكا . والدكم – ايها الاعزاء – كان واحدا من هؤلاء .

* * *

وحتى نلتقي ايها الاعزاء :

لا تستغربوا شجاعة والدكم فهي ، فعلا ، نادرة .

ولا يحزنكم انفطار قلب عمتكم ام حازم .. فمن لا يتمزق قلبه على فقدان والدكم ليس بانسان .

ولا تستعجبوا دموع عمكم صبيح .. فالحب والفخر والاعتزاز .. يمكن ان يكونوا دموعا . وعن ذلك اسألوا دموع اصدقاء والدكم .. فمن كثرتهم وغزارتها سيفيض دجلة والفرات وبردى كما النيل والاردن واليرموك. وسيكنس الطوفان الاوساخ فوق ارضنا وسيسمع الجميع صوت والدكم مجلجلا :

« فليمت من مات بالنار وبالطوفان
انا لن ابكيك يا نسل سدوم
لن تموت الارض ان متم
لها بعل الهي قديم
طالما حنت اليه انثى والهه
فضها البعل ورواها
ففصت بالرجال الآلهه . »

ووالدكم – اعزائي – كان احد الرجال – الآلهة ■■

---

* اثناء الشهيد البطل الرفيق باسل الكبيسي .

أسعد عبد الرحمن